مميزات بني أُمية

٢

خصائص قواد الأُمويين وعمالهم

وما كان خلفاء بني أمية فقط ممتازين بأُمور تفردوا بها على من سواهم بل كان رجالهم وقوادهم وعمالهم لا يشبهون في هذا المعنى عمال بني العباس . فان عمال العباسيين كانوا يشتغلون لأنفسهم على الغالب ، وعمال الأُمويين يشتغلون لدولتهم ، فقد رأينا الحجاج بن يوسف الثقفي مثلاً يعمل كل ما يجب ان يعمل لدولته ورأينا احمد بن طولون في الدور العباسي الثاني يعمل لنفسه اولاً ثم لدولته ، وكان عمله لنفسه عظيماً جداً لم يؤثر بعضه عن عامل من عمال بني أُمية . وعلى ماظهر من تعصب الأُمويين ، وكانوا لا يولون الولايات الا للعرب ، ولا يأمنون على سياستهم الا العرب ، كنت تراهم في المسائل الأُخرى أعجوبة في تساهلهم . أخذ بعضهم عبيد الله بن زياد لاعتماده على الفرس في مسائل الأموال فقال مدافعاً عن نفسه : كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج ، فان أغرمت عشيرته أو طالبته اوغرت صدورهم ، وان تركته تركت مال الله وانا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين ابصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة ، وادون بالمطالبة منكم ، مع أني قد جعلتكم أُمناء عليهم لئلا يظلموا احداً .

وما كان يخلو قائد من قواد الأُمويين من مزايا غريبة تدهشك في جملة ما تدهش من سيرته ، فقد اشتهر الحجاج مثلاً على عظيم سياسته بأمور لا يخطر بالبال ان مثله يفكر فيها ، اشتهر باصلاح الموازين والخراج والزراعة ، ووضع الحركات والاعجام في المصاحف ، لئلا يلتبس شيء من الآيات على من لا يعلم القرآن واتخذ دار الضرب لسك النقود فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ، ثم اذن للتجار وغيرهم في ان تضرب لهم الأوراق ، واستغلها من فضول ما كان يؤخذ من الاجرة للصناع والطباعين وختم ايدي الطباعين . وهو أول من أجرى في البحر السفن المقيّرة المسمرة غير المخرزة والمدهونة وغير ذوات الجآجئ (واحدها جؤجؤ وهو الصدر او عظامه شبهوا به مقدم السفينة) وكان اول من عمل المحامل ولم يرض عن عمله هذا بعض الرّجاز الأكرياء فقال :

أول عبدٍ عمل المحاملا أخزاه ربي عاجلاً وآجلا

وكان من زياد بن ابي سفيان مثل ما كان من الحجاج : بنى في البصرة دوراً واحياء ومساجد وحفر ترعًا وانهاراً وكل ما بنى فيها او صنع فانه نسب الى غيره . قال عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زياداً جمع لهم كما تجمع الذَّرَّة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة ، واصلح العراق بأهل العراق ، وترك اهل الشام في شامهم ، وجبى العراق مائة الف الف وثمانية عشر الف الف . وهذا عتبة بن أبي سفيان اخو معاوية واخطب رجل في بني أمية كان يطفئ الفتن ببلاغته اكثر مما يطفئها بجيش دولته . وهذا موسى بن نصير فاتح الاندلس ما التوى له علم منذ خرج من مصر في جيش ضئيل حتى وصل الى الاندلس ففتحها ، واذا قرأتم ترجمته بأمعان تقولون معي ان الولادة ماولدت اعظم منه ولا أعقل .

ومن المتعذر في ساعة ضيقة كهذه ان نتناول الكلام على رجال القوم ونذكر بعض مالهم من المزايا النادرة ، ونحن لذلك نكتفي بالاشارة الى واحد منهم ، وكل واحد من رجالهم يحتاج الى دراسة خاصة مشبعة ، ونعني به مَسلمة بن عبد الملك . فقد كان على جانب عظيم من العقل والسياسة والعلم والادب . غزا الروم غير مرة واثخن فيهم . وفتح الامهات من مدائنهم ، وتولى الاعمال الجليلة ومنها العراقان وارمينية ، فأبان في كل مكان عن كفاءة منقطعة النظير . وعن حب للخير غريب في بابه ، واوصى بجزء من ماله عظيم لأهل الأدب قائلاً انهم اهل صناعة مجفوة . ولولا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انه ابن أمة لكان من المتحتم ان يجلس على عرش الخلافة الأموية كسائر اخوته الأجلاء الذين بيضوا وجه التاريخ الأموي والاسلامي باعمالهم الجليلة .

التنظير بين الأمويين والعباسيين

حكم الأمويون في الشرق الف شهر ، وحكموا في الغرب نحو ثلاثة قرون ، وكانوا في الشرق والغرب يتحرون جداً في الأموال لا يأخذ الخليفة مالا يحلُّ . وكان مما جرت به عادة خلفائهم اذا جاءتهم جبايات الأمصار ان يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال واحياناً اربعون رجلاً قساماً من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد مافيها دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل أعطيات اهل البلد من المقاتلة والذرية ، بعد ان اخذ كل ذي حق حقه ، اي فضل أعطيات الاجناد وفرائض الناس . وكانوا لا ينقلون مالاً من بلد الى بلد حتى تسد ثغرُه وخصاصة اهله بما يغنيهم ، فما فضل منه نقلوه الى البلد الآخر الذي يليه .

اما جباية العباسيين فكان فيها الطاهر وغير الطاهر ، وانواع ضرائبهم كثيرة ، لذلك كان ينكسر الخراج ويكثر عيث العمال وعبثهم بها . وما عهد عند الأمويين نزول خليفة عن اقليم او عن قطر لعامل من عماله ، يحبيه على هواه لحسابه الخاص ، ويعهد الى من يريد بتوليته عليه ، ويكتفي الخليفة حفظه الله بالخطبة له والدعاء لدولته . وبوضع اسمه على السكة وكانت هذه الطريقة مبدأ تمزيق دولتهم وفض عرى كلمتهم وفي ايام بني العباس كثرت المصادرات ، وكان يصادر العمال كما تصادر الرعية ، ويصادر كل من عرفت له ثروة بلا رحمة ، ومنهم من كانوا يعذبون انواع التعذيب ليسلبوهم نعمتهم ، ومنهم من هلكوا في العذاب ، ومثل هذا الجور قلما عهد في دولة بني أمية ، ذلك لأن عمالهم طبقة مختارة يكونون من أصحاب الشرف وارباب البيوتات من العرب . وقل أن عهدت السرقة في شريف . وما ذكر التاريخ ان قائداً أموياً او وزيراً أموياً صودر على مال ، كما كان يصادر قواد العباسيين وولاتهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ووزراؤهم ؛ ولا سيما في الدور العباسي الثاني ، والسبب في ذلك انتظام طرق الجباية وقلة انواعها عند الأمويين . وكان هشام بن عبد الملك في تنظيم ميزانية الدولة المثل الأعلى وموازنته خير موازنة عُرفت . ثم الى هذا كانت الأخلاق على العموم في العصر الأموي أرقى مما آلت اليه في العصر العباسي ، كان في عمال الأمويين الصحابة والتابعون وتابعو التابعين ، وكلهم غاية في فهم روح الدين ، والبعد عن الصغائر والسفاسف . ودخل في عمال العباسيين أخلاط الزمر ، ومنهم من لا يعرف ابوه ولا أمه ، اوصلته المصادفات الى المراتب العالية ، ومنهم من اظهر الاسلام وابطن خلافه ، كبعض الاتراك والفرس ظلوا في باطنهم على عبادة الكواكب او عبادة النيران .

سرُّ تفوُّق الأُمويين

الذكاء يورّث وينتقل بالدم ، والعلم لا يورّث لأنه خاص بدارسه ، وابن الذكي على الأغلب ذكيّ ، وابن البليد بليد على الاكثر . كذلك كان الناس في كل زمان يجعلون للرجل المنسوب الى جد كان له شأن عظيم في الحياة مالا يجعلون مثله لرجل عادي كان لأحد اسلافه شيءٌ من المكانة ، والدم الطاهر ينم عن صاحبه ولا يكذب رائده . وكان البشر منذ القديم يقول بالوراثة عرفها من طريق عملي لا من طريق علمي ، وكان للعرب في باب تخير البنات الأصيلات غرام شديد منذ ابعد ازمنة تاريخهم وما زالوا على ذلك الى اليوم ، حتى كادت الأمة العربية تعد في هذا المعنى ارستقراطية مع ان اعمالها كلها تدل على تأصل الديموقراطية في دمها . ولذلك رأينا بعض مؤلفي التراجم يحرصون على وضع نسب المترجم له من جهة أهل ابيه وأمه ، وبهذا ساغ لنا ان نستنتج بأن بني أمية لم يظهر ما ظهر منهم من الصفات الغرّ في الجاهلية والاسلام إلا بدم نقي انتقل من الأجداد الى الأحفاد ، وتسلسل العقل والذكاء في رجالهم ونسائهم ، وانتقلت الشجاعة والنجدة في بنيهم وبناتهم . وفي الحديث : الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاسباب الداعية الى التنويه بالأمويين

لا أريد أن اودعكم الآن قبل ان أفاتحكم بأمر طالما لغط به بعضهم وما اجبتهم عليه ، ذلك ان بعض المنحرفين عن بني أمية يتهمني بالتشيع لهم ، وأني أنوه في كل فرصة بحسناتهم ، واغض الطرف عما يتخيله المتخيلون سيئات ، واني أنحي على من ظلموهم وما رحموهم ؛ وما حبي الأمويين ، علم الله ، الا حب من انعم النظر فيما قيل فيهم ولهم ، ووازن بين اعمالهم واعمال غيرهم ، وايقن بعد الدرس الطويل والتفكير العميق أنهم مغبونون في الحكم عليهم . سوّد خصومهم من العباسيين والعلويين صحيفتهم في الدهر الغابر لأجل السياسة حتى صار بغضهم الى اليوم مذهباً يدين به من يدين . ويبلغني عن العراق في نهضته الحديثة انهم قلما يقرؤون في المدارس تاريخ بني أمية لبغض بعض الطوائف لهم ، وهذا من اغرب ما يسجل في تجاهل المعروف ، وعدم الاقرار بالأمر الواقع .

ان حكمي على الأمويين حكم التاريخ فقط ، ارغب في ان أنصف دولة احسنت ولم يبق في الأرض انسان ينسب اليها حتى اقترب من قلبه بما أدون ، ولو كانت المسألة مسألة حظ نفس كان الأولى بي ان أصانع مبغضيهم وهم ملايين اليوم منتشرون في اقطار العالم ولهم حَوْل وطَوْل . فالمسألة اذاً ليست مسألة حب وبغض بل مسألة حق وباطل وأقبحُ بالتاريخ يكتب بعوامل مذهبية وشهوات نفسية واهواء شخصية .

رثاء شوقي للأمويين

ورحم الله صديقي شوقي يذكر الأمويين في قصيدته الخالدة في دمشق بقوله :

بنو أمية للأنباء ما فتحوا ... وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهم ... فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في اطراف دولتها ... في كل ناحية ملك وسلطان
يا ويح قلبي مهما انتاب ارسمهم ... سرى به الهمُّ او عادته اشجان
بالأمس قمت على (الزهراء) اندبهم ... واليوم دمعي على (الفيحاء) هتان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الأرض منهم سماوات وألوية ونيرات وأنواء وعقبان
معادن العز قد مال الرّغام بهم لو هان في تربه الابريز ما هانوا
لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت بيني العباس بغدان
مررت بالمسجد المحزون اسأله هل في المصلى او المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت على المنابر احرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارته إذا تعالى ولا الآذان آذان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net